العمل المتكامل والأداء المسرحي

بقلم الدكتور جهاد الخياط

قضت الحرب العالمية الثانية على الانبساط الزمني الذي سيطر على كوكبنا الارضي وجعله يحبو طيلة عهود غابرة بالدعة والسذاجة والبساطة والسعادة الغامرة ، واتخذ الزمن مسارا جديدا ، مكثفا ، متشنجا ، يلغي في ابعاده من امتد بهم الوقت وانبسط ، وما عاد المحظوظون ـ التعساء ، في هذا القرن ، يستطيعون ان يقولوا في ست ساعات ما يجب ان يقال في ست دقائق ، والا اصبحوا على هامشه ، وما عاد الرجل ذو الستين سنة الذي يحمل عقلية طفل ذي ست سنوات برجل هذا الزمان وواحده ، وما عادت التحية الصباحية التي تستغرق نصف ساعة هنا ، وايماءة هناك ، الا علامة متخلفة لا يبررها العطف المتبادل والصداقة المخلصة وعلاقة الانسان بالانسان ، واصبح من يعيش خمسين سنة في هذا القرن كمن عاش خمس مئة سنة في القرون السابقة ، ومن يقرأ خمسين صفحة الآن كمن قرأ خمس مئة صفحة في الماضي .

وظهر الصراع الزمني واضحا في كل مكان ، انكمش بعض الناس الى الماضي كرد فعل للرعب الذي اكتسح الانسان الوديع ، ونفذ بعض الناس الى المستقبل برؤية واضحة يخططون له نافضين عن كواهلهم اثقال الحلم واستغراق الخيال فاصيبوا بالتشنج الحضاري فقد فاقوا عصرهم ذكاء ، واصبحت قضية الزمن لعبة هذا العصر واساس حضارته وتفسيرا لما فيه من مظاهر متناقضة .

وظهرت ـ في بلادنا ـ بعد الحرب العالمية الثانية ، نتيجة للتوتر الزمني ، محاولات شعرية بسيطة حيية تلغي نظام الشطرين في البيت الواحد وتنوع القوافي والتفعيلات في القصيدة ، وكانت ذات طابع فردي طفولي في اول امرها ، واخذت تبحث عن مضامين جديدة او تجد نفسها متورطة بموضوعات غريبة ، واشتدت يوما بعد يوم وفتن بها اصحاب التوقيت المعاصر ، ورفضها الزمنيون القدامى ، وتجادلوا وتشاتموا ، وتبرز هذه المحاولات السياب لابسا رداء الاستاذية ومسوح الريادة تتقمصه روح شعرية مجنونة لا تمت بصلة الى الدعة الانبساطية التي استغرقت قرونا عديدة ، وكان هذا الشاعر ورهطه يعبرون عن التكثيف الزمني من حيث لا يدرون ويحاولون بطفولية غامرة ان يمسكوا بخيوط التشنج الحضاري التي بدأت تصرع الرؤى السعيدة التي انتظمت الدبكات الشعبية ذات الايقاعات المنتظمة والالبسة الفلكلورية الشائعة .

وكان النقد الادبي يمارس الصوم الخرساني ، واعلن فريق من الكتاب بادوات التصميم وافعال الامر واسماء التفضيل موقفهم ازاء تلك المحاولات .

ووقع السياب ورهطه من الرواد في وهدةالتوقيت بعد ان سابقوه في اول امرهم ، ومضى ربع قرن ولم يحتفل احد بذكرى اليوبيل الفضي لتلك المحاولات التي ما زالت قصيدة واحدة ذات نفثه وجدانية واحدة وطابع رمزي ـ التزامي ، واعاق بعض النقاد من تطويرها بما كتبوه عنها ، ولم يهتم الناس بها كثيرا وانما عنوا بتلك الاقوال التي تلف وتدور وتقع في مهاوي النفعية والانانية واستغلال النصوص الادبية لتنفيذ المآرب الشخصية .

وربع قرن ، بالنسبة لما وطأته المخترعات الحديثة وما اكدته الحرب العالمية الثانية بما خلفته من توقيت جديد ، فترة طويلة جدا لمحاولات شعرية لم تتعد القصيدة الواحدة ذات الصفحة الواحدة ، ولم تتطور الى اشكال جديدة ، وانما كانت تدور في اطار واحد ، واختار بعض الشعراء عامدين ان يكونوا بين شقي الرحى ، التوقيت الزمني المكثف ، والانبساط الذي ما زالت تحيا فيه كثير من مظاهرنا الحضارية فتحدثوا كثيرا عن الالم والضياع والغربة والمأساة .

وكانت النوازع ترد الفنان بطلبات ارادية من الخارج ، في كثير من الاحيان ، فمؤلف النغم الراقص لا يبدأ بكتابته حتى يرى أمامه الراقصين بحللهم الزاهية ، والقصصي لا يبدأ بتأليف قصته حتى يجد ناشرا ، والكاتب المسرحي لا ينشىء تمثيليته الا بعد أن يعثر على المسرح الملائم والجمهور المتحمس وبائع التذاكر النشيط ، والخطيب لا يبدأ خطبته حتى يتأكد بأن الاكف ستكون مصفقة ، والشاعر لا يمدح حتى تتراءى أمامه الاعطية والجائزة .

أما عمليات الخلق الذاتي المنفصلة في وقت ابداعها عن المؤثرات الخارجية فقد كانت محدودة ، ولذا لم تتطور القصيدة الواحدة طيلة ربع قرن .

ولم تخرج هذه القصيدة عن نطاق المحاولة ولم تقترب كثيرا من العمل الادبي المتكامل بذاته ، فقد كانت جزءا منه ساعدت الزمنية المنبسطة على تفكيكه وعدم

تكامـــله ، ولذا بقيت تتخبط في محليتها ووجدانهـــا الالتزامـي .

وقد دعا بعض النقاد الـــى وحدة الموضوع فـي القصيدة الواحدة ، وربع قرن مليء بالاحداث يدعونا الى اجتياز وحدة الموضوع الى وحدة العمل الادبي المتكامل الذي قد يتخذ شكـــلا مسرحيا أو قصصيـــا او ملحميا أو يرفض هذه الاشكال جميعا ليبتدع طريقته بنفسه .

انتهى التكسب ، قتلته المخترعات ، وانتهى النواح والعويل ، فقد شب الانسان مبتعدا عن الدور الطفـولي المتسم بالبكاء والشكوى ، وانتهت القصيدة الواحـــدة ذات النفثة الشعورية الواحدة لنحث السير نحو العمل الادبي المتكامل يبدعه الكاتب او الشاعر او الفنان بعيدا عما سيؤول اليه هذا العمل من نتائج او ما سيجمـــع حواليه من معجبين مصفقين أو حاقدين شاتمين .

العمل المتكامل لا يضع أمامه هدفا ، وقتانشائه ، فهو ليس للقـــراءة أو المسرح او السينما او الاوبرا او الاناشيد الشعبية ، عليه أن يوجد أولا وبعد ذلك يتخذ له سبيلا من الاشكال التي ستقرر امكانيته غناء أو تمثيـلا أو قراءة أو أناشيد أو شخصيات فولكلورية معروفـــة تدور على ألسنة الناس من جيل الى جيل .

فكرة بسيطة مأخوذة من أسطورة يونانية كتبهـــا برنارد شو مسرحية في مطالع هذا القرن اصبحت بعدها عملا متكاملا معروفا شائعـــا بين الناس بمستوياتهـم المختلفة ثقافة وفهما وادراكا ، فمن ذلك المثال الذي أحب ما صنعت يداه « بجماليون » الى عالم باللهجـات يتخذ من فتاة ساذجة تتحدث بلغة تفصح عن ضحالة المنشأ والوسط ـ أداة خلق ـ فيـــدربها في ستة اشهر أن تتحد ثبلغة الطبقة الراقية ولهجتهم المميزة فتصبحمنهم وتدرج بينهم ، عنصر السخرية واضح فـي المسرحية ، والفروق بين الطبقات ، والعلاقة بين الخالق والمخلوق ، وما يتخذه الانسان من وسائل زائفـــة لحماية نفســه وطبقته وتأكيد ذاته ، وغير هذا وذاك ، ويفهم الصغيـر والكبير والغبي والذكي هذا العمـــل الادبي البسيط ، كل بما يتراءى له ، ويشاهد ملايين الناس هذه المسرحية سنة بعد سنة ولمدة طويلة بـلا انقطاع فتصبح جزءا مـن حياتهم وتتخذ سبيلا الى العمل السينمائي الناجح ويغني الناس في أفراحهم واجتماعاتهم الكلمات التـي ترددت على لسان تلك الفتاة الساذجة ـ سيدة المجتمعات الراقية بعد ذلك ، ويعجبون بالفلسفة البسيطة التي كانت تدور على لسان أبيها المتشرد الصعلوك ، واذا بأبطال المسرحية أصدقاء أحياء يعيشون بين الناس ، واذا بهذا العمـــل الادبي المتكامل يفرض نفسه على الاوساط الادبية وغير الادبية دون ان يفكر برنارد شو حيـــن كتب مسرحيته بهذه الامور جميعا ، ومات وما زالت مسرحيته تتخـــذ أشكالا جديدة سنة بعد أخرى .

وهذا الاستاذ الهـــادىء « نيكوس كازانتزاكي » مدرس الفلسفة المشهور يمتد به الزمن سنة وراء أخرى وهو قابع وراء كتبه ودراساته ومحاضراته وعالمه المتزمت واذا به يستيقظ فجأة برؤية واضحة جديدة فيجد الدنيا حواليه باردة مملة وقد تصرمت حيـــاته في ذلك الجو المقيت ، ولكنه لا يستطيع العودة الى الماضي ولا ان يرجع شابا يستقبل الحياة من جديد ويعرف جيدا انه سائر الى الموت ، فيبدأ بكتابة تشخص رجلا يتمنى المؤلف أن يكونه اذا ما عاد به عمره الى الـــوراء ، وهكذا تنقلب الحسرة الى عمل أدبي متكامل ، ويأتي « زوربا اليوناني » ليهز العالم بأقواله وليرى الاشياء يوميـــا للمرة الاولى وليهزأ بالفلسفات جميعا وليضحك على العقول التـي صنعتها الكتب وزيفتها بعيدا عن الطبيعة البشريةالخلاقة الصافية ،وانبهر العالم بتلك الاقوال وأصبحت تدور في أفكار الناس وتسيطر علىبعض أعمالهم واذا بهم يتحدثون عن هذه الفلسفة الجديدة ويعجبون بهـذا الرجل الذي يستطيع ان يقف وحـده فـي خضم الحيـــاة القاسيـة لا يحتاج الى عون مـــن انسان أو تبرير مـن فلسفة ، ويذكرون بكثير من الجذل « بوبولينا » صاحبة الاساطيل الاربعة والقواد العظام الذين كانوا يفرقونها بالشمبانيا ، وذلك الجد الاعمى الذي يبكي بمراره لانه لم يعد يستطيع أن يرى جمال الفتيات الصغيرات في القرية ، وأولئك الناس البسطاء في « كريت » الجزيرة التي أحالها زوربا الى ضرب من الاحلام والاساطير ، وتتخذ القصة سبيلا الى العمل السينمائي الناجح ، ويحفر الطلبة اسم زوربا على مناضدهم تعبيرا عن السأم المقيت ، وهكذا استطاع أستاذ الفلسفة أن يثأر لحياته وأن يقدم لنا عملا أدبيـا خالـــدا .

ولا يمكن أن نعتذر بأن النهضة المسرحية عندنا في أول أمرها وان الامكانيات محدودة وان الناس بعد لـم يهيأوا لمثل هذا العمـل الادبي ، فالكاتب حين ينشـىء لا يفكر في هذه الامور ولا يحاسب الناس والمجتمعـات على ما ستؤدي اليه أعماله الادبية ، فالخلق الفني ليس عملية بيع وشراء ، وقد يسبق الاديب زمنه وقد يسبق المسرح بعشرات السنين .

وأعمالنا الادبية المتكاملة ، القـــديمة والحديثة ، كثيرة ولكن لم يتح لنا أن نستغلها أو أن نستخرجها مـن مظانها لان تلك الاعذار ، ومحدودية الملكة والموهبة ، تقوم سدا منيعا بيننا وبين الانطلاق ، وأديبنا يتعجل الشهرة دائما ، فالاساطير والقصص القديمـــة وأخبار الفرسان والرحالة والجان كثيرة جدا وهي تعيش حيية في بطون التاريخ تنتظر الضربة الساحرة لتخرج الـى الناس في نطاق أهوائهم الشخصية ومشاعرهم الانسانية اذ تهزهم جميعا فيرقصـــون وينشدون ويقـــرأون ويفهمـــون ويضحكون ، وهمومنا الحضارية المضطربة الراهنة خير

معين لكثير من الابداعات الفنية ، وقد اصبح للرمز في شعرنا الحديث زهو وكبرياء يتحدى به الشاعر غبـــاء عصره وزمانه ، وقد يلف الرمز أبعـــاد اكثر من قصيدة واحدة الا انه ما يزال يتيم النفثة الشعورية الواحدة .

أدت القصيدة الواحدة دورها بنجاح واستغرقت أكثر مما يقتضيه ذلك الدور في ربع قرن من الزمن ، وان كانت قد انتهت بشكل من الاشكـال فهي ما زالت البذرة الاولى للعمل المتكامل السامق الذي يظلل الناس جميعا تحت أفيائه ، وستبقى المتنفس الاول لشاعرنـــا المتمرد ـ المقيد الذي لا يستطيـــع أن يعبر عن مشاعره بطريقة مباشرة والا فسيفضح نفسه أمام عصره الراهن المنبسط ، والقراء الذين يفهمون هذه القصيدة الواحدة كالصوفية لا يكشفـــون ولا يتكاشفون ، وهكذا انحسر الشعراء ومريدوهم الى طبقة اكثر من خاصة ، وأصبح للقصيدة الحديثة مناخ فريد من نوعه ، حتى بالنسبـه للاداب الاجنبية ، ونأت كثيرا وحلقت وصعدت ، وتبدو نهايتها غامضة اذا لم تعد وتبسط بتوقيت حاذق وتتخذ لها أشكالا من العمل المتكامل .

المفاهيم الشعريـــة السائدة الان ستتبدل حتما وتتخذ لها أشكالا غير متماثلة في ربع قرن من الزمـــن وستعتمد الحدث الدرامي أساسا لها وستبتعد عـــن الغنائية وعن الاشعار الوجدانية المقطعة حوارا وعـــن المتنفس الوحيد لمأساة الشاعر المعاصر : القصيدةالواحدة المثقلة بالرمز .

وأظن ان على النقاد أن يكفوا عن الدعوة الى وحدة الموضوع وأن يدعوا الى أن يكون النص الادبي نفسهوحدة قائمة بذاتها وعملا متكاملا مشخصا ذا جو أصيـل يلف عوالم كثيرة تدور في اطار واحد وتتفرع عنه انجـازات كثيرة ، فالعمل العظيم يستغل بعد خلقه وتكامله مواهب الاخرين وقابلياتهـــم ليس لفهمه وتذوقه فقط وانمـا لتطوير أشكاله وتحويرها ونمائها مع الزمن .

وبهذا تصبح المحاولات الشعريـــة الراهنة طرازا قديما يتمسك به بعض الناس فيصبحون بمرور الوقت من دعاة القديم ، وتعود مرة أخرى ملهاة القديم والحديث لتشغـــل الناس وتلهيهم عن حياتهم الراهنة ، وكمـا قلت سابقا :

ان زمن القصيدة الواحدة ذات الصفحة الواحـدة والنفثة الشعورية الواحدة والعطاء الوجداني ـ الالتزامي قد ولى ، واننا سائرون حتما الى الاداء المسرحي والعمل المتكـامل .

بنغازي ـ كلية الاداب والتربية

جلال الخياط

دار الاداب تقدم

يسر « دار الاداب » ببيروت ان تعلن لقرائها أنهـا حصلت مـن عميـد الادب العربي

الدكتور طه حسين

على حق نشر مجموعة قيمة من كتبه الاسلامية في مجلد واحد ضخم بعنوان

إسلاميات

وهو يضم الكتب التالية :

على هامش السيرة (باجزائه الثلاثة)
مرآة الاسلام ـ الوعد الحق
الفتنة الكبرى (بجزئيها)

صدر حديثا :

الثمن ١٨ ل ل.